تقسيم التوحيد في الميزان

من خلال ما كتبه المفسرون والمحدثون والمتكلمون والفقهاء

ويليه

تعليق على بيان الأزهر الشريف

بقلم

عبد الله بن عبد الرحمن المكي



تقسيم التّوحيد في الميزان
عبد الله بن عبد الرحمن المكيّ
الطبعة الأولى ٢٠١٧ م
جميع الحقوق محفوظة باتّفاق وعقد



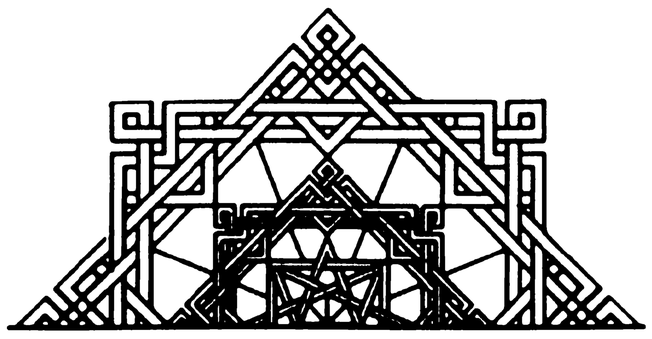
دار النور المبين للنشر والتوزيع

عمّان، الأردن، تلفاكس: 0096264615859

Email: darannor@gmail.com
www.darannor.com
www.facebook.com/darannorpage
@Darannor

جميع الحقوق محفوظة، لايسمح بإعادة وإصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئة في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر.

all rights resrved. no part of this book may be reproduced in a retrieval.orcopid in any from or by any means without prior written permission from the publishar.



تقسيم التوحيد في الميزان

من خلال ما كتبه المفسّرون والمحدّثون والمتكلّمون والفقهاء

ويليه

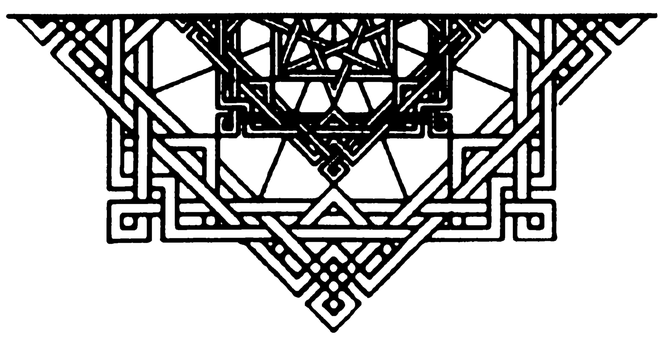
تعليقٌ على بيان الأزهر الشريف

بقلم

عبد الله بن عبد الرحمن المكي



2017



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم:

وبعد هذه كلمات جمعتها من كلام ساداتنا العلماء من مفسرين وفقهاء ومؤرخين ومتكلمين، تتضمن إقرار غالب كفار العرب بوجود الصانع سبحانه وتعالى وإن وقع من بعضهم كفر به تعالى فهو لا يعمهم، وإن شئت فقل: إن بعثة الرسول ﷺ لنفي الشريك عن الله تعالى في الخلق والرزق، وكذا العبادة رغم إقرار غالبية المشركين بأن الله هو الخالق الرازق سواء أسمينا هذا الإقرار والتصديق باسم الإيمان أو باسم التوحيد فهذا أمر آخر قد يرتضه البعض لما فهموا من عبارة توحيد الله بأنه الرب الخالق الرازق نفي تعدد الشراكة في هذا المعنى، وإنما وقع الشرك من جهة عبادة غير الله تعالى مع إقرارهم بأن الله هو الخالق الرازق، وهذا الفهم قد ينكره آخرون ولهم مع هذا الكلام استشكالات يتأمل فيها، ولكن من أبجديات البحث العلمي أننا حينما نستدل بآيات قرآنية نحيل تفسيرها إلى أهل الاختصاص من المفسرين وفي مقدمتهم وأولويتهم التفسير بالمأثور كتفسير ابن جرير الطبري وكذلك في كل فنٍ من الفنون ليكون كلامنا موضوعياً مقبولاً فيكون بذلك ما كتبناه ليس قولاً أو مذهباً انتحلناه بل هو اتجاه جمهرة من العلماء، ومن يخالفهم في فهمهم وقولهم ـ مع احترامنا للجميع ـ أن يحيل كما أحلنا، ولكل وجهة هو موليها والله يقول الحق ويهدي إلى الصراط المستقيم.

سبب تأليف هذه الرسالة:

الباعث على كتابة هذه الرسالة أسباب عدة منها:

١ـ ما وجدته من الإفراط والتفريط والخلط في المفاهيم وما تبع ذلك من

قسوة وتعدٍ في الكلام مع المخالف حتى لو احتمل كلامه وجهاً أو كان فيه بعض الحق.

وتفصيل هذا الكلام: نقول هناك من رأى أن التوحيد ينقسم إلى ربوبية وإلهية وأسماء وصفات وله في أصل التقسيم شواهد معتبرة ستجدها في هذه الرسالة إلا أنه في تفسيره وبيانه لهذه الأقسام خلط وخبط وأدخل في التوحيد ما ليس منه حتى إنه جعل النداء دعاء، ولا يخفى على أدنى طالب علم متمذهب ما يقرأه في كتب المناسك من التوسل بالرسول ﷺ والاستشفاع به ومخاطبته ونداءه، وهذا ليس بدعاء أو عبادة بل هو نداء والتجاء إلى الحبيب ﷺ والنافع والضار هو الله تعالى.

وكذلك الكلام يقال فيمن ينادي باسم شيخ أو ولي هو يناديه وليس يدعوه.

وهذا كله ممكن أن يقال فيه إنه من مسائل الفقه، لا العقائد إلا إذا اعتقد أن هذا النبي والولي مستقل بنفسه دون الله تعالى فهذا شرك ولا يقوله أحد.

أما الطرف الآخر فهم أنكروا التقسيم إجمالاً وتفصيلاً وذلك لما رأوه وشاهدوه من الطرف السابق من تعجل في تكفير سائر المسلمين واستباحة الدماء والأموال دون فقه أو ورع أو تأمل وسؤال، ولكون هذا التقسيم أيضاً محدث ولم يرد به دليل... وللأسف كلا الطرفين وقع في محاذير... فهذا الطرف حينما أنكر التقسيم لم يكتف بإنكار التقسيم فقط بل إنه زعم أن الكفار لا يؤمنون بالصانع وأنه الخالق الرازق!! وهذا كلام خلاف ما تناقله جماهير العلماء من مفسرين وفقهاء ومتكلمين وصوفية محققين حيث قالوا: إنَّ الكفار كانوا يقرون بوجود الله تعالى وإن وجد في بعضهم إنكار الصانع إلا أنَّ هذا لا يعمهم... فلِمَ نقول كلاماً نخالف فيه ظاهر القرآن ونخالف فيه المفسرين والمحدثين والفقهاء... لا بد أن نتجرد من العصبية الفكرية؛ لننظر بأفق فسيح نستطيع من خلاله أن

نتواصل مع الجميع ونبلغ دين الله كما يرضى الله سبحانه وتعالى بغض النظر عن جميع الاعتبارات الأخرى.

وهنا كلمة حق لا بد لنا منها: أنَّ ابن تيمية رحمه الله تعالى هو من اشتهر عنه التقسيم أو نظَّره إلا أنه متشدد في إطلاق التكفير على الأشخاص فلا ينسب محمد بن عبد الوهاب الذي استباح الدماء والأموال للشيخ الجليل ابن تيمية رحمه الله وإن وافقه في بعض المسائل.

قال الحبيب علوي بن أحمد الحداد في كتابه مصباح الأنام في رد شبه النجدي التي أضل بها العوام (٢١): «اعلم أن تكفير المسلمين بلا حجة واضحة عليه عظيم وردء كبير لأنك حكمت عليهم بالخلود في النار بلا دليل واضح، ولله در المؤلف المحقق في الفصول المتقدمة لبيان الحق الجلي وسننقل لك كلام شيخ الإسلام ابن تيمية الحافظ مع أنه هو حجتهم وإمامهم ومعتمدهم على كلامه وإن كان خالف غيره حتى الإمام أحمد بن حنبل المجتهد المستقل المطلق رحمه الله تعالى فنقول (**قال ابن تيمية رحمه الله**): **تنبيه**: أهل السنة أجمعوا على أن الجاهل والمخطىء من هذه الأمة ولو عمل من الشرك والكفر والكفر ما يكون صاحبه مشركاً أو كافراً أنه يعذر بالخطأ والجهل حتى يتبين له الحجة التي يكفر تاركها وهي أن يدعوه إمام أو نائبه ويبين له بياناً واضحاً لا يلتبس على مثله. ومن أصول أهل السنة: من تكلم من المسلمين بكلمة كفر لا يعرف معناها فليس بكافر بإجماع السلف والخلف من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والصوفية وغيرهم من أهل النظر والاجتهاد. انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى».

أقول: لا نتفق مع الشيخ ابن تيمية رحمه الله في قوله إن الجاهل والمخطأ يعذر بالشرك والكفر!! فمن قال أو فعل أو اعتقد كفراً وكان قاصده أو أنكر أيضاً مما علم من الدين بالضرورة يكفر سواء كان جاهلاً أو عالماً كأن سخر بالله أو وعده أو وعيده أو استهزأ بالنبي ﷺ أو اعتقد أن القرآن محرف ومبدل، أو سجد لغير

الله تعالى على جهة التعظيم والعبادة فيكفر في هذا كله ولا يعذر الجاهل بجهله في مثل هذه الأمور إلا أن إطلاق الكفر على المعين وإقامة الحد عليه أو الحكم بردته يرجع في هذا كله إلى إمام المسلمين أو من ينوب عنه.

٢ـ بعض من أنكر تقسيم التوحيد إلى ربوبية وإلهية.. قال بالتقسيم في ظل اعتبارات أخرى وذلك موافقة منه لمن قسم التوحيد إلى توحيد عوام، وخواص، وخواص الخواص.

٣ـ الخلط الذي وقع من ابن تيمية رحمه الله في تفصيل تقسيم التوحيد وحمل آيات المشركين على المؤمنين حينما جعل الوسائط المحبوبة التي عند المسلمين بمثابة الوسائط المعبودة التي كانت عند المشركين والتي قص الله علينا مقالتهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣] فالخلط بين العبادة واتخاذ الشريك لله تعالى مع الوسيلة التي هي بمثابة سبب للدخول على الحق، وليست هي مع الحق سبحانه وتعالى. ونحن عندما نفسر الآيات على وجهها ونظهر الفرق ونبرزه، حينها يستطيع الجميع فهم موضع الخلاف ومنشأه سواء قبلوا الكلام أو رفضوه لكن المهم: أن يفهم بعضنا بعضا،؛ لتتقارب الرؤى وتتضح الصورة.

٤ـ هذه الرسالة ممكن أن تكون وسيلة جمع للطرفين المختلفين، إذ كل طرف منهما بمثابة خط موازٍ للآخر والالتقاء متعذر؛لأنَّ من يقول بالتقسيم ولو أخطأ في تفصيله لا يمكن أن يخالف ظاهر القرآن وكلام أهل العلم الذي يفيد أنَّ الكفار يقرون بوجود الله تعالى، وأيضاً الطرف الآخر الذي لا يرى التقسيم محال أن يقبل به، وهو يرى ما فيه من تعدٍ في الحكم، ومجازفة في التكفير، وما انظم إلى ذلك من استباحة للدماء والأموال.

لذا نقول: التقسيم يمكننا أن نعتبره تقسيماً اصطلاحياً سواء قبلناه أو توقفنا فيه لكن في نهاية الأمر لا بد لنا أن نعتبر أنفسنا وفكرنا ومنهجنا جزء لا يتجزأ

وحلقة لا تنقطع أو تنفرد من كلام سلفنا السابقين الفقهاء والمفسرين والمحدثين والمتكلمين الذين كلامهم لا خفاء فيه بأنَّ الكفار جلهم يقرون بوجود الحق سبحانه.

وفي ختام هذه الكلمات اسأل الله تعالى أن يوفقنا للصواب ويعصمنا من الزلل في الأقوال والأفعال وأن يجعلنا قرة عين لسيد الكونين ﷺ.

أقوال علماء أصول الدين:

قال الشهرستاني في الملل والنحل (٢/ ٦٥١): «فمعطلة العرب وهي أصناف **فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المفني**، وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي وقصر الحياة والموت على تركيبها وتحللها فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فاستدل عليهم بضرورات فكرية وآيات قرآنية فطرية في كم آية وكم سورة فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤] ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ٩] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فأثبت بالدلائل الضرورية من الخلق على الخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة وهم الذين أخبر عنهم القرآن ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨]. فاستدل عليهم بالنشأة الأولى إذ اعترفوا بالخلق الأول فقال ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾ [يس: ٧٩] وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥].

وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وحللوا وحرموا وهم الدهماء من العرب إلا شرذمة منهم نذكرهم وهم الذين أخبر عنهم التنزيل ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وشبهات العرب كانت مقصورة على هاتين الشبهتين إحداهما: إنكار البعث بعث الأجساد، والثانية: جحد البعث بعث الرسل، فعلى الأولى قالوا ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٧].. وأما على الشبهة الثانية: كان إنكارهم لبعث الرسول ﷺ في الصورة البشرية أشد، وإصرارهم على ذلك أبلغ، وأخبر عنهم التنزيل ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] أبشر يهدوننا فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتي ملك من السماء وقالوا ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

ومن كان لا يعترف بهم كان يقول: الشفيع والوسيلة منا إلى الله تعالى هم الأصنام المنصوبة، أما الأمر والشريعة من الله إلينا فهو المنكر فيعبدون الأصنام التي هي الوسائل: وداً أو سواعاً، ويغوث ويعوق، ونسرا.. وكانت العرب إذا لبت وهللت قالت: لبيك اللهم لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

«ومن العرب من كان يميل إلى اليهودية ومنهم من كان يميل إلى النصرانية ومنهم من يصبو إلى الصابئة ويعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ويقول: مطرنا بنوء كذا، ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم بل كانوا يعبدون الجن ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله» اهـ كلام الشهرستاني.

فتحصل مما تقدم أن العرب قبل البعثة أصناف بعضهم يقرون بوجود الله وأنه الخالق الرازق وهم طوائف ومنهم أيضاً من يكفر به سبحانه ولا يؤمن به على سبيل الإطلاق؛ لذا أقول: إن من أطلق إيمانهم بالله تعالى وأنه الخالق الرازق وعمم هذا على العرب جميعاً فقد أخذ بنصوص وترك أخرى، وكذلك من نفى إيمانهم بالله تعالى وزعم أنهم ينكرون الصانع فقد غفل عن النصوص الشرعية والتاريخية.

قال العلامة المحدث ملا علي قاري في شرح الفقه الأكبر: فابتداء كلامه سبحانه وتعالى بالحمد لله رب العالمين يشير إلى تقدير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية وهو ما يجب على العبد أولاً من معرفة الله سبحانه وتعالى.

والحاصل: أنه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية د ون العكس في القضية لقوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقوله سبحانه حكاية عنهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣] بل غالب سور القرآن وآياته متضمنة لنوعي التوحيد بل القرآن من أوله إلى آخره في بيانهما وتحقيق شأنهما، وقد أعرض الإمام (أبو حنيفة) عن بحث الوجود اكتفاءً بما هو ظاهر في مقام الشهود[1] ففي التنزيل ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فوجود الحق ثابت في فطرة الخلق كما يشير إليه قوله سبحانه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]... وإنما جاءت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لبيان التوحيد وتبيان التفريد؛ ولذا أطبقت كلمتهم وأجمعت

(١) هذا الكلام من ملا علي قاري يستفاد منه أن الإمام الأعظم يرى أن كفار قريش كانوا يؤمنون بوجوده تعالى وأنه من خلق السموات والأرض.

حجتهم على كلمة: لا إله إلا الله، ولم يؤمروا بأن يأمروا أهل ملتهم بأن يقولوا: الله موجود، بل قصدوا إظهار أن غيره ليس بمعبود حيث قال ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] و﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. إهـ كلام المحدث القاري.

وقال العلامة أكمل الدين البابرتي في شرح العقيدة الطحاوية (٣٧): قوله: (لا شريك له) أراد بهذا نفي أنواع الشرك، إذ الاشتراك في اللغة هو: التسوية.

وهو إما في الذات كما فعلت الثنوية حيث أثبتوا للعالم صانعين: خيراً ويسمونه (يزدان) وشريراً ويسمونه (اهرمن). وكذا الطبائعية والأفلاكية.

وإما في التسمية واستحقاق العبادة كما صنع مشركوا العرب حيث عبدوا مع الله الأصنام وسموها آلهة فصاروا مشركين مع إقرارهم بأن الله هو الخالق باعتبار عبادتهم غير الله، قال الله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾[الزمر:٣٨] وإما في الوصف كما زعمت المجسمة حيث وصفوا البارىء بالصورة والجسمية والتمكن على العرش على مثال البشر تسوية منهم بين الله وبين خلقه فصاروا لذلك من جملة المشركين، وقد نزه الله تعالى نفسه الكريمة عن جميع ذلك حيث قال ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣] ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩].

وكلام الإمام البابرتي صريح بحال مشركي العرب بعبادتهم الله تعالى وإيمانهم بأنه الخالق الرازق والإشراك به سبحانه وتعالى في العبادة.

وقال الإمام الأصولي المتكلم الكمال ابن الهمام في المسايرة[1] في (الأصل الأول: العلم بوجوده تعالى): «فمن أدار نظره في عجائب تلك المذكورات

(١) المسايرة لابن الهمام مع شرحها للكمال ابن أبي شريف (٢٧).

اضطره إلى الحكم بأن هذه الأمور مع هذا الترتيب المحكم الغريب لا يستغني كل عن صانع أوجده وحكيم رتبه وعلى هذا درجت كل العقلاء إلا من لا عبرة بمكابرته، وإنما كفروا بالإشراك ونسبة بعض الحوادث إلى غيره تعالى وإنكار ما جعل الله سبحانه إنكاره كفراً كالبعث وإحياء الموتى كالمجوس بالنسبة إلى النار، والوثنيين بالأصنام والصابئة بالكواكب، واعترف الكل بأن خلق السموات والأرض والألوهية الأصلية لله تعالى. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزمر:٣٨] فهذا كان في فطرهم؛ ولذا كان المسموع من الأنبياء دعوة الخلق إلى التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله دون أن يشهدوا أن للخلق إلهاً». اهـ كلام ابن الهمام.

وجاء في كتاب تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب للإمام قاضي الجماعة أبي عبد الله الكومي التونسي[1]: «والتوحيد على أربعة أقسام: توحيد الألوهية، وتوحيد الأفعال، وتوحيد الصفات، وتوحيد الذات.

فتوحيد الألوهية: مرجعه أن الله هو الإله وحده، أي هو المنفرد بوصف الألوهية التي من أجلها يعبد وحده، الذي هو الوجود الذاتي الذي إليه يرجع كل ممكن لاحتياجه إليه.

وتوحيد الأفعال: مرجعه أن الله هو الفاعل وحده.

وتوحيد الصفات: مرجعه إلى أن الله هو الحي وحده.

وتوحيد الذات مرجعه إلى أن الله هو الموجود على الحقيقة وحده.

فأما توحيد الألوهية: فهو صريح هذه الجملة الكريمة، وإليها دعي عموم

(١) تحرير المطالب لقاضي الجماعة أبي عبد الله محمد البكي الكومي التونسي (المتوفى سنة ٩١٦هـ) ص (٧٠).

الخلق، وبالإقرار بها يرتفع القتل؛ لقوله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله.

والتوحيد بأقسامه الأربع جاء في القرآن والسنة والآثار، وعلمه أهله ببرهان الأنفس والآفاق». ا.هـ كلامه رحمه الله.

وجاء في **تهذيب شرح السنوسية** للمحقق الشيخ سعيد فودة (١١٩): «التوحيد على أقسام؛ منها: توحيد الألوهية، وتوحيد الأفعال، وتوحيد الصفات، وتوحيد الذات. وتوحيد الألوهية مرجعه إلى أن الله هو الإله وحده؛ أي هو المتفرد بوصف الألوهية الذي يرجع كل ممكن لاحتياجه إليه، وتوحيد الأفعال مرجعه إلى أن الله هو الفاعل وحده، وتوحيد الصفات مرجعه إلى أن الله هو الحي وحده، وتوحيد الذات مرجعه إلى أن الله هو الموجود على الحقية».

أقوال علماء التفسير:

قال المفسر الكبير الإمام ابن جرير الطبري في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما يُقِرُّ أكثر هؤلاء الذين وصَفَ عز وجل صفتهم بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥] بالله أنه خالقه ورازقه وخالق كل شيء ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦]، في عبادتهم الأوثان والأصنام، واتخاذهم من دونه أربابًا، وزعمهم أنَّ له ولدًا، تعالى الله عما يقولون.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ـ ذكر من قال ذلك:

١٩٩٥٤ - حدثنا ابن وكيع، قال: حدثنا عمران بن عيينة، عن عطاء ابن

السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾[يوسف:١٠٦] الآية، قال: من إيمانهم، إذا قيل لهم: مَن خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون.

١٩٩٥٥ - حدثنا هناد، قال: حدثنا أبو الأحوص، عن سماك، عن عكرمة، في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦]، قال: تسألهم: مَن خلقهم؟ ومن خلق السماوات والأرض، فيقولون: الله. فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره.

١٩٩٥٦ - حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عامر، وعكرمة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ الآية، قالا يعلمون أنه ربُّهم، وأنه خلقهم، وهم يشركون به.

١٩٩٥٨ ـ حدثنا ابن وكيع، قال: حدثنا أبي، عن إسرائيل، عن جابر، عن عامر، وعكرمة، بنحوه.

١٩٩٥٩ -..... قال: حدثنا ابن نمير، عن نضر، عن عكرمة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦]، قال: من إيمانهم إذا قيل لهم: من خلق السماوات؟ قالوا: الله. وإذا سئلوا: من خلقهم؟ قالوا: الله. وهم يشركون به بَعْدُ.

١٩٩٦٠ -..... قال: حدثنا أبو نعيم، عن الفضل بن يزيد الثمالي، عن عكرمة، قال: هو قول الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [سورة لقمان: ٢٥، سورة الزمر:٣٨]. فإذا سئلوا عن الله وعن صفته، وصفوه بغير صفته، وجعلوا له ولدًا، وأشركوا به. (١)

١٩٩٦١ - حدثنا الحسن بن محمد، قال: حدثنا شبابة، قال: حدثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦]، إيمانهم قولهم: الله خالقُنا، ويرزقنا ويميتنا.

١٩٩٦٢ - حدثني محمد بن عمرو، قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، فإيمانهم قولُهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا.

١٩٩٦٣ - حدثني المثنى، قال: أخبرنا أبو حذيفة، قال: حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، إيمانُهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا.، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيرَه.

١٩٩٦٤ -.... قال، حدثنا إسحاق، قال: حدثنا عبد الله، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا.

١٩٩٦٥ - حدثنا ابن وكيع، قال: حدثنا هانئ بن سعيد وأبو معاوية، عن حجاج، عن القاسم، عن مجاهد، قال: يقولون: «الله ربنا، وهو يرزقنا»، وهم يشركون به بعدُ.

١٩٩٦٦ - حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد، قال: إيمانهم قولُهم: الله خالقنا، ويرزقنا ويميتنا.

١٩٩٦٧ -.... قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنا أبو تميلة، عن أبي حمزة، عن جابر، عن عكرمة، ومجاهد، وعامر: أنهم قالوا في هذه الآية: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، قال: ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض، فهذا إيمانهم، ويكفرون بما سوى ذلك.

١٩٩٦٨ - حدثنا بشر، قال، حدثنا يزيد، قال حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، في إيمانهم هذا. إنك لست تلقى أحدًا منهم إلا أنبأك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته.

١٩٩٦٩ - حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال:حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ الآية، قال: لا تسأل أحدًا من المشركين: مَنْ رَبُّك؟ إلا قال: ربِّيَ الله! وهو يشرك في ذلك.

١٩٩٧٠ - حدثني محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، يعني النصارى، يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، [لقمان: ٢٥، سورة الزمر:٣٨]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولئن سألتهم من يرزقكم من السماء والأرض؟ ليقولن: الله. وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره، ويسجدون للأنداد دونه.؟

١٩٩٧١ - حدثني المثنى، قال: أخبرنا عمرو بن عون، قال، أخبرنا هشيم، عن جويبر، عن الضحاك، قال: كانوا يشركون به في تلبيتهم.

١٩٩٧٢ - حدثنا ابن وكيع، قال: حدثنا ابن نمير، عن عبد الملك، عن عطاء: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾، الآية، قال: يعلمون أن الله ربهم، وهم يشركون به بعدُ.

١٩٩٧٣ - حدثني المثنى، قال: حدثنا عمرو بن عون، قال: أخبرنا هشيم، عن عبد الملك، عن عطاء، في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، قال: يعلمون أن الله خالقهم ورازقهم، وهم يشركون به.

١٩٩٧٤ - حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال: سمعت ابن زيد يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾، الآية، قال: ليس أحدٌ يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به. ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ

وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]؟ قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون. قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به. ألا ترى كيف كانت العرب تلبِّي تقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك؟ المشركون كانوا يقولون هذا»[1].

وقال الإمام المتكلم الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فالمعنى: أنهم كانوا مقرين بوجود الإله بدليل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكاً في المعبودية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم الذين يشبهون الله بخلقه وعنه أيضاً أنه قال: نزلت هذه الآية في تلبية مشركي العرب لأنهم كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وعنه أيضاً أن أهل مكة قالوا: الله ربنا وحده لا شريك له الملائكة بناته فلم يوحدوا، بل أشركوا، وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده، وقالت اليهود: ربنا الله وحده وعزيز ابن الله، وقالت النصارى: ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله، وقال عبدة الشمس والقمر: ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا، وقال المهاجرون والأنصار ربنا الله وحده ولا شريك معه، واحتجت الكرامية بهذه الآية على أن الإيمان عبارة عن الإقرار باللسان فقط، لأنه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع أنهم مشركون، وذلك يدل على أن الإيمان عبارة عن مجرد الإقرار باللسان، وجوابه معلوم».

وقال العارف بالله الإمام ابن عجيبة في البحر المديد: «﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ أي: وما يصدق أكثرهم بوجود الله في إقرارهم، بوجوده، وخالقيته

(١) تفسير الطبري (٧/ ٣١٢).

للأشياء، وأنه الرزّاق المميت. ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادة الأصنام، أو باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً، أو بنسبة التبني إليه، أو الوقوف مع الأسباب، أو غير ذلك من أنواع الشرك الجلي والرهبان أرباباً، أو بنسبة التبني إليه، أو بالوقوف مع الأسباب، أو غير ذلك من أنواع الشرك والجلي والخفي. قيل: نزلت في مشركي مكة، وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملك: وقيل: في أهل الكتاب».

وقال الإمام الألوسي في تفسيره: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده تعالى وخالقيته ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ به سبحانه، والجملة في موضع الحال من الأكثر أي ما يؤمن أكثرهم إلا في حال إشراكهم. قال ابن عباس. ومجاهد. وعكرمة. والشعبي. وقتادة: هم أهل مكة آمنوا وأشركوا كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك، ومن هنا كان ﷺ إذا سمع أحدهم يقول: لبيك لا شريك لك يقول له: قط قط أي يكفيك ذلك ولا تزد إلا شريكاً الخ. وقيل: هم أولئك آمنوا لما غشيهم الدخان في سني القحط وعادوا إلى الشرك بعد كشفه. **وعن ابن زيد وعكرمة وقتادة ومجاهد أيضاً: أن هؤلاء كفار العرب مطلقاً أقروا بالخالق الرازق المميت وأشركوا بعبادة الأوثان والأصنام، وقيل: أشركوا بقولهم: الملائكة بنات الله سبحانه. وعن ابن عباس أيضاً: أنهم أهل الكتاب أقروا بالله تعالى وأشركوا به من حيث كفروا بنبيه ﷺ أو من حيث عبدوا عزيزاً والمسيح عليهما السلام.**

وقيل: أشركوا بالتبني واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً. وقيل: هم الكفار الذين يخلصون في الدعاء عند الشدة ويشركون إذا نجوا منها وروي ذلك عن عطاء، وقيل: هم الثنوية قالوا بالنور والظلمة. وقيل: هم المنافقون جهروا بالإيمان واخفوا الكفر ونسب ذلك للبلخي، وعن الحبر أنهم المشبهة آمنوا مجملاً وكفروا مفصلاً. وعن الحسن أنهم المراؤون بأعمالهم والرياء شرك خفي، وقيل:

هم المناظرون إلى الأسباب المعتمدون عليها، وقيل: هم الذين يطيعون الخلق بمعصية الخالق، وقد يقال نظراً إلى مفهوم الآية: إنهم من يندرج فيهم كل من أقر بالله تعالى وخالقيته مثلاً وكان مرتكباً ما يعد شركاً كيفما كان، ومن أولئك عبدة القبور الناذرون لها المعتقدون للنفع والضر[1] ممن الله تعالى أعلم بحاله فيها وهم اليوم أكثر من الدود».

أقوال علماء التفسير في قوله جل شأنه ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

قال الإمام الطبري في جامع البيان (٦/ ٥٤٢) «قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويعبُد هؤلاء المشركون الذين وصفت لك، يا محمد صفتهم، من دون الله الذي لا يضرهم شيئًا ولا ينفعهم، في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك هو الآلهة والأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، يعني: أنهم كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وآله:(قل) لهم (أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض)، يقول: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ وذلك أن الآلهة لا تشفع لهم عند الله في السموات ولا في الأرض. وكان المشركون يزعمون أنها تشفع لهم عند الله. فقال

(١) يدخل أيضاً في هذه الآية كما ذكر الألوسي رحمه الله: عبدة القبور من غير المسلمين، الذين يعبدون القبور بدعاء أصحابها واعتقاد أنهم ينفعونهم استقلالاً من دون الله تعالى. أما زيارة قبور الأولياء والصالحين والاستشفاء بهم ونداءهم لا دعاءهم وطلب المدد منهم باعتبارهم أحياء في قبورهم يسمعون من خاطبهم ويعرفون من زارهم فهذه مسألة فقهية لا دخل لها بالعقيدة، وكتب السير والتراجم ذكرت لنا الشيء الكثير من أحوال السلف الصالح رضوان الله عليهم في حالهم عند زيارة سيدنا رسول الله ﷺ وأصحابه وأهل بيته والأولياء الذين اشتهرت ولايتهم، وسيأتي بيان بعض ذلك في مبحث مستقل.

الله لنبيه صلى الله عليه وآله: قل لهم: أتخبرون الله أن ما لا يشفع في السموات ولا في الأرض يشفع لكم فيهما؟ وذلك باطلٌ لا تعلم حقيقته وصحته، بل يعلم الله أن ذلك خلاف ما تقولون، وأنها لا تشفع لأحد، ولا تنفع ولا تضر ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يقول: تنزيهًا لله وعلوًّا عما يفعله هؤلاء المشركون، من إشراكهم في عبادته ما لا يضر ولا ينفع، وافترائهم عليه الكذب».

وقال الإمام الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية: «واعلم أنه تعالى حكى عنهم أمرين:

أحدهما: أنهم كانوا يعبدون الأصنام. والثاني: أنهم كانوا يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾. أما الأول فقد نبه الله تعالى على فساده بقوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وتقريره من وجوه: الأول: قال الزجاج: لا يضرهم إن لم يعبدوه ولا ينفعهم إن عبدوه. الثاني: أن المعبود لا بد وأن يكون أكمل قدرة من العابد، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ألبتة، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد، وإذا كان العابد أكمل حالاً من المعبود كانت العبادة باطلة. الثالث: أن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهي لا تليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الأنعام، وذلك ليس إلا الحياة والعقل والقدرة ومصالح المعاش والمعاد، فإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى، وجب أن لا تليق العبادة إلا بالله سبحانه.

وأما النوع الثاني: ما حكاه الله تعالى عنهم في هذه الآية، وهو قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فاعلم أن من الناس من قال إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى. فقالوا ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى. ثم اختلفوا في أنهم كيف

قالوا في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله؟ وذكروا فيه أقوالاً كثيرة: فأحدها: أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل أقليم من أقاليم العالم، روح معين من أرواح عالم الأفلاك، فعينوا لذلك الروح صنماً معيناً واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم، ومقصودهم عبادة ذلك الروح، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبداً للإله الأعظم ومشتغلاً بعبوديته. وثانيها: أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصناماً معينة واشتغلوا بعبادتها، ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب. وثالثها: أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات. **ورابعها: أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل، فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله.** وخامسها: أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم، وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر، وعلى صورة الملائكة صوراً أخرى. وسادسها: لعل القوم حلولية، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة».

وقال الإمام الألوسي في روح المعاني «والظاهر أن المراد هنا الأصنام لأن العرب إنما كانوا يعبدونها وكان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافا ونائلة ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: كان النضر بن الحرث يقول: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى وفيه نزلت الآية.

والظاهر أن سائر المشركين كانوا يقولون هذا القول، ولعل ذلك منهم على سبيل الفرض والتقدير أي إن كان بعث كما زعمتم فهؤلاء يشفعون لنا، فلا يقال: إن المتبادر من الشفاعة عند الله تعالى أنه في الآخرة وهو مستلزم للبعث وهم ينكرونه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] وكذا ما تقدم آنفاً من قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [يونس: ١٥] فيلزم المنافاة بين مفاهيم الآيات، وكأنه لذلك قال الحسن عليه الرحمة: إنهم أرادوا من هذه الشفاعة الشفاعة في الدنيا لإصلاح المعاش، وحينئذٍ لا منافاة والجمهور على الأول، ومن سبر حال القوم رآهم مترددين ولذلك اختلفت كلماتهم، ونسبة الشفاعة للأصنام قيل باعتبار السببية وذلك لأنهم كما هو المشهور وضعوها على صور رجال صالحين ذوي خطر عندهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادتها فإن أولئك الرجال يشفعون لهم، وقيل: إنهم كانوا يعتقدون أن المتولي لكل إقليم روح معين من أرواح الأفلام فعينوا لذلك الروح صنماً من الأصنام واشتغلوا بعبادتها قصداً إلى عبادة الكواكب وقيل: غير ذلك، والحق أن من الأصنام ما وضع على الوجه الأول ومنها ما وضع لكونها كالهياكل للروحانيات».

وقال العارف بالله ابن عجيبة في البحر المديد: «﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ من الجمادات التي لا تقدر على ضر ولا نفع، والمعبود ينبغي أن يكون مثيباً ومُعاقباً، حتى تكون عبادته لجلب نفع أو دفع الضر. ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأوثان ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا، أو في الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكين فيه، وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة الموجد للأشياء، الضار النافع، إلى عبادة ما يُعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع».

تفسير قول الله تعالى ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

قال الإمام ابن جرير الطبري: وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ يقول تعالى ذكره: والذين اتخذوا من دون الله أولياء يَتَوَلَّوْنَهُم، ويعبدونهم من دون الله، يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زُلْفَى، قربة ومنزلة، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا، وهي فيما ذُكر في قراءة أبي: ﴿ما نَعْبُدُكُمْ﴾، وفي قراءة عبد الله: «﴿قالوا ما نعبدهم﴾ وإنما حسن ذلك لأن الحكاية إذا كانت بالقول مضمرا كان أو ظاهرا، جعل الغائب أحيانا كالمخاطب، ويترك أخرى كالغائب، وقد بيَّنت ذلك في موضعه فيما مضى.

حدثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن المفضل، قال: ثنا أسباط، عن السديّ، قال: هي في قراءة عبد الله: «قالُوا ما نَعْبُدُهُمْ».

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ قال: قريش تقوله للأوثان، ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزَير.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ قالوا: ما نعبد هؤلاء إلا ليقرّبونا، إلا ليشفعُوا لنا عند الله.

حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السديّ، في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ قال: هي منزلة».

وقال الإمام الفخر الرازي في تفسيره: «واعلم أنه تعالى لما بين أن رأس العبادات ورئيسها الإخلاص في التوحيد أردفه بذم طريقة المشركين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وعلى هذا التقدير فخبر الذين محذوف وهو قوله يقولون، واعلم أن الضمير في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ عائد على الأشياء التي عبدت من دون الله، وهي قسمان العقلاء وغير العقلاء، أما العقلاء فهو أن قوماً عبدوا المسيح وعزيزاً والملائكة، وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة، وأما الأشياء التي عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهي الأصنام، إذا عرفت هذا فنقول الكلام الذي ذكره الكفار لائق بالعقلاء، أما بغير العقلاء فلا يليق، وبيانه من وجهين الأول: أن الضمير في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ ضمير للعقلاء فلا يليق بالأصنام الثاني: أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار في المسيح والعزيز والملائكة أن يشفعوا لهم عند الله، أما يبعد من العاقل أن يعتقد في الأصنام والجمادات أنها تقربه إلى الله، وعلى هذا التقدير فمرادهم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله، ويمكن أن يقال إن العاقل لا يعبد الصنم من حيث إنه خشب أو حجر، وإنما يعبدونه لاعتقادهم أنها تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا، ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى تلك الأشياء التي جعلوا هذه التماثيل صوراً لها، وحاصل الكلام لعباد الأصنام أن قالوا: إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله

مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر، فهذا هو المراد من قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾».

وقال العارف بالله ابن عجيبه في البحر المديد: «يقول الحق جلّ جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لم يخلصوا في عبادتهم، بل شاوبُوها بعبادة غيره، كالأصنام، والملائكة، وعيسى، قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ لشيء من الأشياء ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي: تقريباً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وبين خصمائهم، الذين هم المخلصون للدين، وقد حذف لدلالة الحال عليه، كقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] على أحد الوجهين، أي: بين أحد منهم وبين غيره. قيل: كان المسلمون إذا قالوا للمشركين: مَن خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى».

بعض أقوال كبار العلماء والأئمة في اعتقاد مشركي العرب بوجود الله وأنه الخالق الرازق:

١ـ الإمام محمد بن الحسن الشيباني في كتابه السير الكبير (١/ ١٥٠) حيث قال رحمه الله: «وعبدة الاوثان كانوا يقرون بالله تعالى. قال الله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، ولكن كانوا لا يقرون بالوحدانية قال الله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وقال فيما أخبر عنهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾».

٢ـ الإمام السرخسي في شرح السير الكبير: «وَعَبَدَةُ الْأَوْثَانِ كَانُوا يُقِرُّونَ بِاَللَّهِ تَعَالَى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وَلَكِنْ كَانُوا لَا يُقِرُّونَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وَقَالَ فِيمَا أَخْبَرَ

عَنْهُمْ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؛ فَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ أَقَرَّ بِمَا هُوَ مُخَالِفٌ لِاعْتِقَادِهِ؛ فَلِهَذَا جُعِلَ ذَلِكَ دَلِيلَ إِيمَانِهِ فَقَالَ: «أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». وَعَلَى هَذَا الْمَانَوِيَّةُ وَكُلُّ مَنْ يَدَّعِي إِلَهَيْنِ، إذَا قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَذَلِكَ دَلِيلُ إِسْلَامِهِ.

فَأَمَّا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى هُمْ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَلَا تَكُونُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ دَلِيلَ إِسْلَامِهِمْ.

وَهُمْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا لَا يُقِرُّونَ بِرِسَالَتِهِ».

وقال رحمه الله في المبسوط (١٩ / ١٤١): «فَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ لَا يُعَظِّمُونَ شَيْئًا مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ تَعْظِيمَ الْعِبَادَةِ؛ فَلِهَذَا لَا يُذْكَرُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي اسْتِحْلَافِ الْمُسْلِمِ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ يَحْلِفُونَ بِاَللَّهِ فَإِنَّهُمْ **يُعَظِّمُونَ اللَّهَ تَعَالَى** كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وَإِنَّمَا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ تَقَرُّبًا إلَى اللَّهِ تَعَالَى بِزَعْمِهِمْ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ فَيَمْتَنِعُونَ مِنْ الْحَلِفِ بِاَللَّهِ كَاذِبًا وَيَحْصُلُ بِهِ الْمَقْصُودُ وَهُوَ النُّكُولُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ الْمَجُوسِيُّ فِي بَيْتِ النَّارِ؛ لِأَنَّ الِاسْتِحْلَافَ عِنْدَ الْقَاضِي وَالْقَاضِي مَمْنُوعٌ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ، وَفِي ذَلِكَ مَعْنَى تَعْظِيمِ النَّارِ».

٣- **الإمام أبو حامد الغزالي** حيث قال رحمه الله في إحياء علوم الدين (١ / ١٠٥): «ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا: (لا إله إلا الله) وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله؛ فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشؤهم وفي عنفوان شبابهم؛ولذلك قال عز و جل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1].

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٥٠).

وله أيضاً كلام نفيس قاله في موضع آخر رحمه الله وهو «وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار والأنبياء هم الكحالون، وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول: (لا اله الا الله) ومعناه: أن لا يرى إلا الواحد الحق. والواصلون إلى كمال التوحيد: هم الأقلون، والجاحدون والمشركون أيضاً: قليلون وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد؛ اذ عبدة الأوثان قالوا: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً والمتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال؛ فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم، والدوام فيه عزيز.

لكل إلى شأو العلا حركات ... ولكن عزيز في الرجال ثبات[1]

٤ـ **الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني** في فتح الباري (١٣/ ٤٩٤) حيث قال رحمه الله: «باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال يسألهم: من خلقهم؟ ومن خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله!؛ فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره. ومن طريق يزيد بن الفضل الثماني عن عكرمة في هذه الآية ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: هو قول الله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فإذا سئلوا عن الله وعن صفته وصفوه بغير صفته وجعلوا له ولدا وأشركوا به وبأسانيد صحيحة عن عطاء وعن مجاهد نحوه».

٥ـ **الإمام الحافظ الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء - (١٧/ ٥٤٧):**

(١) نفس المصدر (٤/ ٨٧).

«المشركون والكتابيون وغيرهم عرفوا الله تعالى بمعنى أنهم لم يجحدوه، وعرفوا أنه خالقهم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] فهؤلاء لم ينكروا البارئ، ولا جحدوا الصانع، بل عرفوه، وإنما جهلوا نعوته المقدسة، وقالوا عليه ما لا يعلمون، والمؤمن عرف ربه بصفات الكمال، ونفى عنه سمات النقص في الجملة، وآمن بربه، وكف عما لا يعلم، فبهذا يتبين لك أن الكافر عرف الله من وجه، وجهله من وجوه، والنبيون عرفوا الله تعالى، وبعضهم أكمل معرفة بالله، والأولياء فعرفوه معرفة جيدة، ولكنها دون معرفة الانبياء، ثم المؤمنون العالمون بعدهم، ثم الصالحون دونهم.فالناس في معرفة ربهم متفاوتون، كما أن إيمانهم يزيد وينقص، بل وكذلك الأمة في الإيمان بنبيهم والمعرفة له على مراتب، فأرفعهم في ذلك أبو بكر الصديق مثلا».

٦- **الإمام المؤرخ ابن هشام في سيرته** حيث قال رحمه الله (١ / ٧٧): [أَوّلُ عِبَادَةِ الْحِجَارَةِ كَانَتْ فِي بَنِي إسْمَاعِيلَ].

قَالَ ابْنُ إسْحَاق: وَيَزْعُمُونَ أَنّ أَوّلَ مَا كَانَتْ عِبَادَةُ الْحِجَارَةِ فِي بَنِي إسْمَاعِيلَ أَنّهُ كَانَ لَا يَظْعَنُ مِنْ مَكّةَ ظَاعِنٌ مِنْهُمْ حَيْن ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ وَالْتَمَسُوا الفَسَحَ فِي الْبِلَادِ إلّا حَمَلَ مَعَهُ حَجَرًا مِنْ حِجَارَةِ الْحَرَمِ تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ فَحَيْثُمَا نَزَلُوا وَضَعُوهُ فَطَافُوا بِهِ كَطَوَافِهِمْ بِالْكَعْبَةِ حَتّى سَلَخَ ذَلِكَ بِهِمْ إلَى أَنْ كَانُوا يَعْبُدُونَ مَا اسْتَحْسَنُوا مِنْ الْحِجَارَةِ وَأَعْجَبَهُمْ حَتّى خَلَفَ الْخُلُوفُ وَنَسُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ وَاسْتَبْدَلُوا بِدِينِ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ غَيْرَهُ فَعَبَدُوا الْأَوْثَانَ وَصَارُوا إلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْأُمَمُ قَبْلَهُمْ مِنْ الضّلَالَاتِ وَفِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ بَقَايَا مِنْ عَهْدِ إبْرَاهِيمَ يَتَمَسّكُونَ بِهَا، مِنْ تَعْظِيمِ الْبَيْتِ وَالطّوَافِ بِهِ وَالْحَجّ وَالْعُمْرَةِ وَالْوُقُوفِ عَلَى عَرَفَةَ؛ فَكَانَتْ كِنَانَةُ وَقُرَيْشٌ إذَا أَهَلّوا قَالُوا: «لَبّيْكَ اللّهُمّ لَبّيْكَ لَبّيْكَ لَا شَرِيكَ

لَـك، إلّا شَرِيكٌ هُوَ لَك، تَمْلِكُـهُ وَمَا مَلَكَ». فَيُوَحّدُونَهُ بِالتّلْبِيَـةِ ثُمّ يُدْخِلُونَ مَعَهُ أَصْنَامَهُـمْ وَيَجْعَلُـونَ مِلْكَهَا بِيَـدِهِ. يَقُولُ اللهُ تَبَـارَكَ وَتَعَالَى لِمُحَمّدٍ صَـلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أَيْ مَـا يُوَحّدُونَنِـي لِمَعْرِفَـةِ حَقّي إلّا جَعَلُوا مَعِي شَرِيكًا مِنْ خَلْقِي».

٧ـ **قال الإمام المحدث المناوي** في فيض القدير - (٦ / ٢٠٦): (من شهد أن لا إله إلا الله) أداة الحصر لقصر الصفة على الموصوف قصر إفراد لأن معناه الألوهية منحصرة في الله الواحد في مقابلة من يزعم اشتراك غيره معه وليس قصر قلب لأن أحدا من الكفار لم ينفها عن الله وإنما أشرك معه غيره * ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾».

٨ ـ **الإمام الفقيه ابن نجيم في البحر الرائق (١٩/ ٣١٢)**: «وَالْوَثَنِيُّ لَا يَحْلِفُ إلَّا بِاَللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ الْكَفَرَةَ بِأَسْرِهِمْ يَعْتَقِدُونَ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾».

٩ـ **الإمام الكاساني** في بدائع الصنائع (١٤/ ١٧١) فصل في كيفية اليمين: «وَإِنْ كَانَ الْحَالِفُ كَافِرًا فَإِنَّهُ يَحْلِفُ بِاَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَيْضًا ذِمِّيًّا كَانَ أَوْ مُشْرِكًا؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لا يُنْكِرُونَ الصَّانِعَ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَلَّ شَأْنُهُ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فَيُعَظِّمُونَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى عَزَّ شَأْنُهُ وَيَعْتَقِدُونَ حُرْمَةَ الْإِلَهِ إلَّا الدَّهْرِيَّةَ وَالزَّنَادِقَةَ وَأَهْلَ الْإِبَاحَةِ. وَهَؤُلَاءِ أَقْوَامٌ لَمْ يَتَجَاسَرُوا عَلَى إظْهَارِ نِحْلَتِهِمْ فِي عَصْرٍ مِنْ الْأَعْصَارِ إلَى يَوْمِنَا هَذَا وَنَرْجُو مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُمَّةِ حَبِيبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا يُقَدِّرَهُمْ عَلَى إظْهَارِ مَا انْتَحَلُوهُ إلَى انْقِضَاءِ الدُّنْيَا».

١٠ـ **قال الإمام الفقيه البجيرمي** في حاشيته على شرح المنهج - (٦/ ٣٣٨) «وَيُؤْخَذُ مِنْهُ بِالْأَوْلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْمُسْلِمِ إذَا اسْتَفْتَاهُ ذِمِّيٌّ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ فِي السُّؤَالِ،

أَوْ الْجَوَابِ لَفْظَ الْجَلَالَةِ فَتَنَبَّهَ لَهُ فَإِنَّهُ يَقَعُ فِيهِ الْخَطَأُ كَثِيرًا ع ش[1] عَلَى م ر[2]. وَقَالَ شَيْخُنَا ح ف بِالْجَوَازِ؛ لِأَنَّهُمْ يُعَظِّمُونَ اللهَ تَعَالَى قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾».

١١ـ **الإمام الحلبي** في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ـ (٣/ ٢٥): «والسور التي افتتاحها القسم بالأسماء دون الحروف، كان القسم فيها لإثبات أحد الأصول الثلاثة وهي: الوحدانية والرسالة والحشر وهي التي يتم بها الإيمان.

ثم إنه تعالى لم يقسم لإثبات الوحدانية إلا في سورة واحدة من تلك السور وهي (الصافات)، حيث قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]، وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون: أجعل الآلهة إلها واحدا، على سبيل الإنكار، فقد كانوا يبالغون في الشرك، **لكنهم في تضاعيف أقوالهم وتصاريف أحوالهم كانوا يصرحون بالتوحيد**، وكانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾» [العنكبوت: ٦١].

(١) يقصد به الشيخ الفقيه علي الشبراملسي.

(٢) المراد به الشيخ الفقيه حفني.

الخاتمة

من خلال ما تقدم نقله عن السادة العلماء المختصين في أصول الديانة والتفسير وغيرهم من محدثين وفقهاء ومؤرخين وما عزوه وأسندوه إلى القرون المفضلة (عصر النور) نتوصل إلى الحقائق التالية:

١ـ أنَّ غالب كفار قريش يقرون بأن الله هو الخالق وحده الرازق وحده ولكنهم يتخذون الأصنام ويعبدونها لتقربهم إلى الله تعالى زلفى سواءٌ أسمينا هذا بتوحيد الخالق أو توحيد الرازق أو توحيد الربوبية لما تضمنته لفظة (الرب) من معنى التربية والخلق والإنشاء.قال ابن فارس في مجمل اللغة (٢٤٥): «الرب: المالك والخالق والصاحب، والرب: المصلح للشيء». فكانت بعثة الرسول ﷺ إلى من آمن بأن الله الخالق الرازق وأشرك معه غيره ليفرد الله تعالى بالعبادة دون شريك، وكذلك بعث الله تعالى نبيه ﷺ إلى من أنكر الصانع ولم يؤمن حتى بوجوده كالدهريين، فالأول اصطلح بعض العلماء على تسميته بتوحيد الربوبية والثاني: أسموه بتوحيد الألوهية أو العبادة. وما نقلناه من كتب التفسير عن أئمة السلف من الصحابة والتابعين تفيد هذا التقسيم تلميحاً لا تصريحاً، وتأمل قول الله سبحانه: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

فالإله: «من أَلَهَ إلاهَـةً كعبد عبادةً، والمتأله: المتعبد، وبذلك سمي الإله؛ لأنه معبود»[1].

قال الإمام ابن عجيبة في البحر المديد: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ بأن نفى الألوهية التي كانت لآلهتهم وقصرها على واحد، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾؛ بليغ

(١) مجمل اللغة (٣٤).

في العجب، وذلك لأنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم، الذين أطبقوا على عبادة آلهتهم، كابراً عن كابر، فإنَّ مدار كل ما يأتون ويذورن، من أمور دينهم، هو التقليد والاعتياد، فيَعُدون ما يخالف ما اعتادوه عجباً من العجاب، بل محالاً»

فلا حرج إذن إن أسمينا لزوم إفراد الله تعالى بالعبادة توحيد العبادة أو توحيد الألوهية إذ المقصود من توحيد الربوبية إفراد الله باعتقاد أنه هو المتفرد بالخلق والإنشاء، أما توحيد الألوهية فالمقصود منه إفراد الله تعالى بالعبادة دون صرف شيء من العبادات لأحد من الخلق. وهذه المعاني اتفق عليها علماء المسلمين قاطبة دون اختلاف أو استنكار، وجرى الخلاف عند المتأخرين ببدعية تقسيم التوحيد، وما ذكرناه في هذه الورقات يثبت هذا التقسيم عن السلف تلميحاً لا تصريحاً. ووقع التصريح بالتقسيم كما تقدم عند الإمام ملا علي قاري في شرحه للفقه الأكبر وقاضي الجماعة الإمام الكومي في شرحه لعقيدة ابن الحاجب، ولا يبعد أن يوجد في بعض كلام المتقدمين التصريح بذلك لو استقرأنا ما سطروه وكتبوه.

واشتهر هذا التقسيم عن ابن تيمية رحمه الله حتى نسب إليه، وكأنه هو من اخترعه أو ابتدعه!

نعم هو رحمه الله فصَّل فيه تفصيلات مقت هو بسببها، إذ ساوى بين المشركين الذين يعبدون الأصنام بالذبح والدعاء لها بالمؤمنين الذين يقصدون قبر الرسول ﷺ وقبر خلفاءه من الأولياء والصالحين فيزورونهم ويسلمون عليهم ويتوسلون بهم وينادونهم ويطلبون منهم معتقدين أن النافع والضار هو الله تعالى وأن هؤلاء ينفعونهم بوجاهتهم عند الله دون استقلال منهم، وشأنهم في ذلك شأن من يزور أحد الصالحين ويطلب منه الدعاء،فإن قيل: هؤلاء موتى لا يسمعون ولا يجيبون! فيكون الحديث حينها هل يسمعون ويجيبون أم لا؟ دون أن نشكك في عقائد الموحدين، ومتى اعتقد المسلم في الحي أو الميت الاستقلال بالنفع أو الضر يكون بذلك قد أشرك وخرج عن دين الإسلام!؛ فخلط ابن تيمية رحمه

الله بين النداء والدعاء، وأنزل الآيات التي نزلت في المشركين الذين يعبدون غير الله بالمسلمين الذين يعتقدون النفع والضر كله بيد الله، وإنما هؤلاء حالهم كحال الدواء مثلاً فهو سبب لا يؤثر بنفسه إنما بإذن الله تعالى.

ثم جاء محمد بن عبد الوهاب وبنى على كلام ابن تيمية رحمه الله بكفر أهل زمانه ومن قبلهم حتى ستمائة عام!! واستباح دماء المسلمين وأموالهم بدعوى أنهم كفار مشركون!!، دون أن يتحقق من بواطنهم ولكن لهوى في قلبه وهوس في عقله آل به ليكون في عداد القتلة السفاحين.

جاء في كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية لابن قاسم: «وما ذكرت من جهة الحرمين الشريفين، الحمد لله على فضله وكرمه، حمداً كثيراً كما ينبغي أن يحمد، وعزَّ جلاله، لما كان أهل الحرمين آيبين عن الإسلام، وممتنعين عن الانقياد لأمر الله ورسوله، ومقيمين على مثل ما أنت عليه اليوم من الشرك والضلال والفساد، وجب علينا الجهاد بحمد الله فيما يزيل ذلك عن حرم الله وحرم رسوله ﷺ من غير استحلال لحرمتهما».

وفي المجلد العاشر صفحة (٤٢٩) من الكتاب المذكور نقل المؤلف ابن قاسم عن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف قوله: «من لم يكفر الدولة (الخلافة العثمانية) ولم يفرق بينهم وبين البغاة من المسلمين لم يعرف معنى لا إله إلا الله، **فإن اعتقد مع ذلك: أن الدولة مسلمون، فهو أشد وأعظم وهذا هو الشك في كفر من كفر بالله، وأشرك به؛ ومن جرهم وأعانهم على المسلمين بأي إعانة فهي ردة صريحة**».

ومن يقرأ في تاريخ تلك الحقبة من خلال ما كتبه مؤرخو الدعوة المؤيد والمعارض يكتشف ما جرى فيها من استباحة الدماء والأموال[1] والخروج على دولة

(١) ينظر على سبيل المثال كتاب (كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد عبد الوهاب =

الخلافة العثمانية في وقت تكالبت عليها قوى الكفر في أوروبا لإسقاطها وتفكيك دولة الإسلام وفتح الطريق للمستعمر الكافر لتقسيم المسلمين إلى دويلات يسوغ له سلب خيراتها وإفساد شعوبها. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كل هذا لأجل مسألة فقهية من قال بها يعتقد أن النافع الضار الله وحده دون شريك وإنما الأنبياء والأولياء مجرد أسباب كما أسلفنا.

وتأمل حديث الشفاعة حينما تفزع الخلائق إلى الأنبياء فيردونهم حتى يستغيثون بالنبي ﷺ فيقول: أنا لها أنا لها. والحديث مروي في صحيح البخاري. وبما أخرجه الطبراني في الكبير بإسناد رجاله ثقاة عن بقية بن غزوان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا ضلَّ أحدكم شيئاً أو أراد أحدكم عوناً وهو بأرض ليس بها أنس فليقل: يا عباد الله أعينوني؛ فإن لله عباداً لا نراهم» وقد جرب ذلك انتهى لفظ الطبراني.

وقد عمل الإمام أحمد بن حنبل قدس الله روحه بهذا الحديث فقد روى البيهقي في الشعب وابن عساكر من طريق عبد الله ابن الإمام أحمد، ورواه عبد الله بن الإمام أحمد في المسائل (٢١٧) بإسناد صحيح قال: سمعت أبي يقول: «حججت خمس حجج منها اثنتين راكباً وثلاثة ماشياً، أو اثنتين ماشياً وثلاثة راكباً؛ فضللت الطريق في حجة وكنت ماشياً فجعلت أقول: يا عباد الله دلونا على الطريق، فلم أزل أقول ذلك حتى وقعت على الطريق»[1].

= تحقيق الدكتور عبد الله العثيمين، وكتاب روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام لابن غنام، وما كتبه العلامة السيد أحمد زيني دحلان في كتابه الدرر السنية في الرد على الوهابية، وكتاب الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية للشيخ الصالح سليمان بن عبد الوهاب).

(١) ينظر للاستزادة كتاب الحنابلة والاختلاف مع السلفية المعاصرة في العقائد والفقه والتصوف للشيخ المحقق مصطفى حمدو عليان الحنبلي (٣٤٧).

وللعلامة المحدث محمد عابد السندي رسالة ذكر فيها الأدلة وهي مطبوعة ضمن رسالة المحقق الكوثري بتحقيق الشيخ وهبي غاوجي الألباني رحمهم الله جميعاً فلتنظر.

٢ـ هناك بعض الاستشكالات على ما ينبني من قولنا: إن كفار قريش موحدون بتوحيد الربوبية ومشركون في الإلهية، أو مؤمنون من وجه وكفار من وجه آخر، وهو اجتماع التوحيد والشرك في آن واحد!

الجواب: لا يصح إطلاق الإيمان عليهم وهم يقرون بجزئه لا كله، ولكن يقيد الإيمان بما وقر في قلوبهم، فيقال كما قدمناه عن أئمة التفسير أنهم يؤمنون بأن الله الخالق الرازق ويشركون به.

وكذلك القول مثلاً فيمن آمن بالله وأخلص في عبادته ولكنه لم يؤمن بالملائكة، فلا يجري عليه وصف الإيمان على سبيل الإطلاق لأنه كفر بركن من أركان الإيمان. ويشهد لهذا الكلام ما قدمناه من النقول، ومن أنفس ما ذكر كلام حجة الإسلام الغزالي حيث قال رحمه الله: «اذ عبدة الأوثان قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً»[1].

٣ـ فإن قيل إن الميت إذا وضع في قبره يسأله الملكان ويقولان له: من ربك؟ وهذا ينفي ما تقدم ذكره من التفريق بين الربوبية والألوهية.

الجواب: لو قدرنا أنَّ هذا الميت يؤمن بالله رباً وإلهاً واحداً دون شريك ولكنه ارتكب ما يخرجه عن الإسلام كاستنقاص النبي ﷺ أو جحد فرضية الصلاة، فهل سيلهم الجواب!

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٨٧).

بطبيعة الحال: لا، ولكن ورد لفظ (الرب) لعله لما يفيده من معنى الإنشاء والإيجاد، وباعتبار ما يلزم عنه من إفراد الله تعالى بالعبادة، ولك في الإسلام والإيمان مثال يحتذى به، فالإسلام أعمال الظاهر والإيمان أعمال الباطن وفي الغالب إذا ذكر أحدهما يعم الآخر، فإذا قلنا: فلان مسلم انصرف هذا الكلام إلى الإسلام والإيمان.

قال إمام الحرمين أبو المعالي الجويني في العقيدة النظامية (٨٧): «فإن قيل: هل تفرقون بين الإيمان والإسلام فرقاً؟.

قلنا: قد يطلق الإسلام والمراد به الإيمان، وقد يطلق والمراد به الإذعان والاستسلام ظاهراً من غير اضمان حقيقة الإيمان. قال الله تبارك وتعالى ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] فالمؤمن إذن: المستسلم. وقد لا يكون المستسلم مؤمناً، فكل مؤمن على ذلك مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً» إهـ كلام الجويني رحمه الله.

وهذا ما يسره الله تعالى من كتابة هذه الكلمات وليس لي فيها إلا النقل عن أئمة الدين، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنبت وإليه المصير، فمن رأى حسنة فلينشرها ومن رأى غير ذلك فليصلحه، وليتق الله في أعراض المسلمين فإنَّ من تتبع عورات الناس تتبع الله عورته وفضحه على رؤوس الأشهاد.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله و صحبه وسلم

تعليق

على بيان الأزهر الشريف

بقلم

عبدالله بن عبد الرحمن المكّي

بيان الأزهر الشريف مع التعليق عليه

اطلعنا على الطلب المقيد برقم ١٨٤ لسنة ٢٠٠٧ م والمتضمن هناك شاب في أحد قرى محافظة البحيرة يقوم بتكفير كل أهل القرية بحجة أنهم يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء إلى الله تعالى ويتبركون بزيارة مقام سيدنا الحسين عليه السلام، ويدعي أن كل من يفعل ذلك يكون من المشركين الذين كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبية ولا يؤمنون بتوحيد الألوهية. فهل هناك أنواع للتوحيد[1]؟ وهل كان المشركون مقرين بتوحيد الربوبية؟ وهل التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والتبرك بزيارة مقامات الأولياء يعد شركاً كما يقول؟!.

الجواب: فضيلة الأستاذ الدكتور على جمعة محمد:

يجب على المسلم أن يحذر من المجازفة في التكفير؛ حتى لا يقع تحت طائلة الوعيد المذكور في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يرمي رجل رجلاً

(١) هذه المقدمة للسؤال تستلزم أن تتجه الإجابة نحو إنكار أصل التقسيم، والتشنيع وبقسوة إلى كل من يميل إليه أو يتوقف في إنكاره، ولكن هنا يبرز العلم النافع المحاط بالعقل الرصين الذي من اتصف بهما لا يؤتى المسلمون وأعراضهم ودماؤهم وأموالهم من جهته سواء كانوا موافقين أم مخالفين، وهكذا عهدنا الأزهر الشريف منارة للعلم والمعرفة والموضوعية بعيداً عن التعصب الممقوت عند جميع طوائف المسلمين، وقد اتجه سماحة المفتي نحو الإقرار بأصل التقسيم كما سيأتي، ولو كان السؤال والواقعة التي فيه، وكذا ظروف عصرنا الحاضر وما نراه ونسمعه من الجهال الذين لا يتقنون الفاتحة ولا يعرفون فروض الوضوء تسمح لرأيت سماحة المفتي أكثر صراحة ووضوحاً، ومعلوم أنَّ الزمان والمكان لهما أثر كبير على الفتوى؛ فكيف والحال أنه استبيحت دماء وأموال بسبب ما دخل في التقسيم من مسائل فقهية لا دخل لها بالعقيدة البتة.

بالفسق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك» رواه البخاري من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما» رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لعن المؤمن كقتله، ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله» رواه البخاري من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

وتقسيم التوحيد إلى ألوهية وربوبية هو من التقسيمات المحدثات التي لم ترد عن السلف الصالح[1]، وأول من أحدثها على ما هو المشهور ـ هو الشيخ ابن تيمية رحمه الله ـ[2] ثم أخذه عنه من تكلم به بعد ذلك، وحاصل

(١) نعم لم يرد عن السلف الصالح تقسيم للتوحيد لا إلى ألوهية وربوبية، ولا إلى ما ذهب إليه بعض ساداتنا الصوفية إلى تقسيمه باعتبارات وجدانية إلى توحيد عوام وخواص وخواص الخواص، ولا إلى توحيد الذات باعتبار أن الله واحد في ذاته، ووحدانية الأفعال بأنه سبحانه هو الفاعل على الحقيقة دون الاعتماد على الأسباب، ووحدانية الصفات باثبات ذاتاً غير معطلة عن الصفات ولا مشابهة ومماثلة لصفات المخلوقات، ومعلوم أن الترك وعدم مجيء التقسيم في الشرع ليس بحكم، وإن كان محدثاً لا مانع أن نقبله أو حتى نتوقف فيه إن كان مستمداً من الكتاب والسنة وأقاويل السلف الصالح دون أن نبدع ونضلل لأسباب معينة كل من قال به والتزم وتقيد بالضوابط الشرعية.

(٢) لا يوجد دليل أنَّ ابن تيمية رحمه الله هو أول من أحدثها، لأننا نجد أن بعض كبار أهل السنة والجماعة جاء عنهم تقسيم التوحيد كالملا علي قاري في «شرح الفقه الأكبر»، وقاضي الجماعة الإمام أبي عبد الله الكومي التونسي في كتابه «تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب» ولو استقرأنا لوجدنا غيرهما لا محالة.نعم جرى الكلام على تقسيم التوحيد عند ابن تيمية بصورة يستحيل أن توجد عند غيره حتى إنه رحمه الله أدخل في التوحيد ما ليس منه كالاستغاثة بالأنبياء والأولياء مع اعتقاد أن الله هو وحده النافع الضار وغيره وسائط محبوبة لا معبودة، جعلها من قبيل الدعاء؛ وبالرغم من هذا كله نجد أنَّ **من عاصر ابن تيمية من فطاحل العلماء تتبع ابن تيمية في شواذه في الأصول والفروع**، فرد عليه التقي السبكي في فناء النار، وفي فتوى الطلاق، والتوسل والزيارة، والتشبيه والتجسيم و..، =

قوله[1] **في ذلك**: أن الربوبية هي توحيد الله بأفعاله، والألوهية هي توحيد الله بأفعال العباد، وأنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، أي: إن أحدهما يتضمن الآخر عند الانفراد، ويختص بمعناه عند الاقتران؛ فالألوهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية، وهذا الكلام إلى هذا القدر لا إشكال فيه[2]، إلا أنه تجاوزه إلى الزعم بأن هذا التوحيد وحده لا يكفي في الإيمان، وأن المشركين مُقِرُّون بتوحيد الربوبية، **وأن كثيرًا من طوائف الأمة -من المتكلمين وغيرهم- قد اقتصروا عليه وأهملوا توحيد الألوهية**[3].

والقول بأن توحيد الربوبية لا يكفي وحده في الإيمان هو قول مبتَدَعٌ مخالف لإجماع المسلمين قبل ابن تيمية[4]، بل ومخالف لكلامه نفسِه من أن توحيد

= وكذا غيره من أهل العلم كالتقي الحصني والبخاري، **ومع هذه الردود والتقصي لم يردوا عليه أصل التقسيم للتوحيد ولو رأوه حدثاً مخالفاً للشرع لأنكروه وردوه.**

(١) الضمير في «قوله» يعود على ابن تيمية رحمه الله.

(٢) قف عند هذا الانصاف، وليت الجميع الموافق والمخالف الذين يقرأون البيان فيحتجوا به أو يردوه ليت الجميع يفهم فحوى الكلام والمقصود منه، وتأمل قوله: (لا إشكال فيه) ولكنا أبتلينا بالتسرع والعصبية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٣) هنا زلت قدم ابن تيمية رحمه الله، وهذا محل الإنكار، الذي لا يوافق عليه، ولكن وللأسف أننا نجد بعض العلماء وكثيراً من طلبة العلم أنكروا أصل التقسيم بل قالوا: إن المشركين كانوا ملحدين لا يقرون بوجود الصانع وتأولوا الآيات القرآنية التي نسبت إليهم الإيمان بوجود الله وأنه الخالق الرازق، ولم يلتفتوا إلى أقاويل المفسرين من السلف كابن عباس ومجاهد وعكرمة وإلى ما دونه علماء السيرة من تعظيم المشركين للبيت الحرام والأشهر الحرم. ولو سلك هؤلاء من علماء وطلبة علم مسلك السابقين الذين ردوا الخطأ في كلام ابن تيمية رحمه الله وسكتوا عن الصواب لكان أوجب وألزم.

(٤) تقسيم التوحيد جرى على سياق حال بعض المشركين من إيمانهم بأن الله الخالق الرازق واعتقاد الشريك معه سبحانه، ولا يقاس عليه الآن أي أحد. فمن وحد الله لا بد أن يوحده بأنه وحده الخالق الرازق المتفرد بالعبادة، لا شبيه له، لا مثيل له، =

الألوهية متضمِّنٌ لتوحيد الربوبية، وأن توحيد الربوبية مستلزِمٌ لتوحيد الألوهية؛ فإن بطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم، فإذا لم يكن المشركون مُقِرِّين بتوحيد الألوهية فلا يصح الزعم بعد ذلك أنهم كانوا مُقِرِّين بتوحيد الربوبية[1]؛ ضرورة

= والآن لا يتصور أحد يؤمن بالله مثلاً وينكر نبوة سيدنا محمد ﷺ أو الملائكة أو اليوم الآخر فإن وجد فلا يوصف بالإيمان المطلق بل يقال مؤمن بوجود الله كما يقال في اليهودي مؤمن بموسى فوصفه يقيد بما آمن به؛ لأن الإيمان هو التصديق، وهذا المعنى غفل عنه كثير ممن يتكلم في هذا الباب.

(١) كفار قريش مقرون بتوحيد الربوبية أو بأن الله الخالق وهو يستلزم توحيد العبادة أو الألوهية ولكنهم لم يكونوا يقرون بهذه اللوازم، وكم من أمر يلزم من القول به قول آخر وتجد من يقول به لا يقول بذاك القول. فعلى سبيل المثال القول بالجهة للباري سبحانه يلزم منه أمور كثيرة كالحيز والجسمية، والمشبهة يثبتون الجهة وينفون هذه اللوازم فهل ننفي عنهم القول بالجهة على اعتبار بطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم، وماذا نصنع بكلام المفسرين من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من العلماء والأئمة الذين تقدم النقل عنهم في أوائل هذه الرسالة.وإليك بعض ما قالوه:

قال العلامة المحدث ملا علي قاري في شرح الفقه الأكبر: فابتداء كلامه سبحانه وتعالى بالحمد لله رب العالمين يشير إلى تقدير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية وهو ما يجب على العبد أولاً من معرفة الله سبحانه وتعالى.

والحاصل: أنه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية د ون العكس في القضية لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقوله سبحانه حكاية عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣] بل غالب سور القرآن وآياته متضمنة لنوعي التوحيد بل القرآن من أوله إلى آخره في بيانهما وتحقيق شأنهما،-وقد أعرض الإمام (أبو حنيفة) عن بحث الوجود اكتفاءً بما هو ظاهر في مقام الشهود ففي التنزيل: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فوجود الحق ثابت في فطرة الخلق كما يشير إليه قوله سبحانه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]... وإنما جاءت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لبيان التوحيد وتبيان التفريد؛ ولذا أطبقت **كلمتهم وأجمعت حجتهم على كلمة: لا إله إلا الله، ولم يؤمروا بأن يأمروا أهل ملتهم بأن يقولوا:** =

= **الله موجود، بل قصدوا إظهار أن غيره ليس بمعبود** حيث قال ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] و﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]». إهـ كلام المحدث القاري.

وقال العلامة أكمل الدين البابرتي في شرح العقيدة الطحاوية (٣٧): «قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ أراد بهذا نفي أنواع الشرك، إذ الاشتراك في اللغة هو التسوية.

وهو إما في الذات كما فعلت الثنوية حيث أثبتوا للعالم صانعين: خيراً ويسمونه (يزدان) وشريراً ويسمونه (اهرمن). وكذا الطبائعية والأفلاكية.

وإما في التسمية واستحقاق العبادة كما صنع مشركو العرب حيث عبدوا مع الله الأصنام وسموها آلهة فصاروا مشركين مع إقرارهم بأن الله هو الخالق باعتبار عبادتهم غير الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وإما في الوصف كما زعمت المجسمة حيث وصفوا البارىء بالصورة والجسمية والتمكن على العرش على مثال البشر تسوية منهم بين الله وبين خلقه فصاروا لذلك من جملة المشركين، وقد نزه الله تعالى نفسه الكريمة عن جميع ذلك حيث قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣] ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]».

وكلام الإمام البابرتي صريح بحال مشركي العرب بعبادتهم الله تعالى وإيمانهم بأنه الخالق الرازق والإشراك به سبحانه وتعالى في العبادة.

وقال الإمام الأصولي المتكلم الكمال ابن الهمام في المسايرة في (الأصل الأول: العلم بوجوده تعالى): «فمن أدار نظره في عجائب تلك المذكورات اضطره إلى الحكم بأن هذه الأمور مع هذا الترتيب المحكم الغريب لا يستغني كل عن صانع أوجده وحكيم رتبه وعلى هذا درجت كل العقلاء إلا من لا عبرة بمكابرته،-**وإنما كفروا بالإشراك ونسبة بعض الحوادث إلى غيره تعالى وإنكار ما جعل الله سبحانه إنكاره كفراً كالبعث وإحياء الموتى كالمجوس بالنسبة إلى النار، والوثنيين بالأصنام والصابئة بالكواكب، واعترف الكل بأن خلق السموات والأرض والألوهية الأصلية لله تعالى.** قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ **فهذا كان في فطرهم؛ ولذا كان المسموع من الأنبياء دعوة الخلق إلى التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله دون أن يشهدوا أن للخلق إلهاً**». إهـ كلام ابن الهمام.

وجاء في كتاب تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب =

انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم، وإذا صح إقرار المسلمين بتوحيد الربوبية فلا يجوز

= للإمام قاضي الجماعة أبي عبد الله الكومي التونسي: «**والتوحيد على أربعة أقسام: توحيد الألوهية، وتوحيد الأفعال، وتوحيد الصفات، وتوحيد الذات.**

فتوحيد الألوهية: مرجعه أن الله هو الإله وحده، أي هو المنفرد بوصف الألوهية التي من أجلها يعبد وحده، الذي هو الوجود الذاتي الذي إليه يرجع كل ممكن لاحتياجه إليه.

وتوحيد الأفعال: مرجعه أن الله هو الفاعل وحده.

وتوحيد الصفات: مرجعه إلى أن الله هو الحي وحده.

وتوحيد الذات مرجعه إلى أن الله هو الموجود على الحقيقة وحده.

فأما توحيد الألوهية: فهو صريح هذه الجملة الكريمة، وإليها دعي عموم الخلق، وبالإقرار بها يرتفع القتل؛ لقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله».

والتوحيد بأقسامه الأربع جاء في القرآن والسنة والآثار، وعلمه أهله ببرهان الأنفس والآفاق». إهـ كلامه رحمه الله.

وجاء في تهذيب شرح السنوسية للمحقق الشيخ سعيد فودة (١١٩): «**التوحيد على أقسام؛** منها:-**توحيد الألوهية، وتوحيد الأفعال، وتوحيد الصفات، وتوحيد الذات.** وتوحيد الألوهية مرجعه إلى أن الله هو الإله وحده؛ أي هو المتفرد بوصف الألوهية الذي يرجع كل ممكن لاحتياجه إليه، وتوحيد الأفعال مرجعه إلى أن الله هو الفاعل وحده، وتوحيد الصفات مرجعه إلى أن الله هو الحي وحده، وتوحيد الذات مرجعه إلى أن الله هو الموجود على الحقية».

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في إحياء علوم الدين (١ / ١٠٥): «**ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا: (لا إله إلا الله) وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله؛ فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشؤهم وفي عنفوان شبابهم؛** ولذلك قال عز و جل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾

وله أيضاً كلام نفيس قاله في موضع آخر رحمه الله وهو «وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار والأنبياء هم الكحالون، وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول: (لا اله الا الله) ومعناه: أن لا يرى إلا الواحد الحق. =

أن يُدَّعى أنهم لا يؤمنون بتوحيد الألوهية؛ لأن الفرض أنهما متلازمان[1]، فكيف يثبت الملزوم مع انتفاء اللازم! وقد تصدّى أهل العلم لرد هذا القول وبينوا فساده، وأنه قول باطل لا دليل عليه، وأن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أما تكفير من توسل بجاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء فهو على الحقيقة تكفير للسواد الأعظم من علماء الأمة؛ لأن التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم مما أجمعت عليه مذاهب الأئمة الأربعة المتبوعين[2]، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمر بالتوسل به في حديث الأعمى وغيره من الأحاديث الصحيحة.

= والواصلون إلى كمال التوحيد: هم الأقلون، والجاحدون والمشركون أيضاً: قليلون وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد؛ **اذ عبدة الأوثان قالوا:** ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ **فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً** والمتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال؛ فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم، والدوام فيه عزيز:

لكل إلى شأو العلا حركات ... ولكن عزيز في الرجال ثبات»

وهذا الكلام لم يأت هكذا، إنما هو مستوحى من الشرع الشريف وكلام سلفنا الصالحين، ولا يسوغ لنا أن نرده ونتجاهله، إذ اختلاط الحق بالباطل أو الصواب بالخطأ لا يجعلنا نعمم الكلام ونتجاهل ما فيه من حق ومعروف وهذا مسلك أهل الإنصاف، فما أدخل في أبواب التوحيد والعقيدة من مسائل فقهية يتوجب علينا أن نكون موضوعيين ونتحلى بالعدل والحلم والانصاف دون التعصب والتسرع.

(١) قوله: (وإذا صح إقرار المسلمين بتوحيد الربوبية فلا يجوز أن يُدَّعى أنهم لا يؤمنون بتوحيد الألوهية؛ لأن الفرض أنهما متلازمان) هذا حق ولا شك فيه،وكل مقولة تشكك أو تفتش في عقائد المسلمين فهي تسلك سلوك الخوارج وتسعى لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية.

(٢) انظر إلى كتب المناسك للأئمة الأربعة كلها نصت على التوسل وشد الرحال للجناب النبوي، ولا ينكر ذلك إلا محروم نسأل الله الحفظ والسلامة.

وللشوكاني في كتابه «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» كلام نفيس عن جواز التوسل ننقله على طوله لِمَا فيه من تجلية الأمر في هذه المسألة، يقول رحمه الله: «وأما التوسل إلى الله سبحانه بأحد من خلقه في مطلب يطلبه العبد من ربه فقد قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم إن صح الحديث فيه اهـ. ولعله يشير إلى الحديث الذي أخرجه النسائي في سننه والترمذي وصححه وابن ماجه وغيرهم أن أعمى أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إني أصبت في بصري فادع الله لي، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «توضأ وصل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد، يا محمد إني أستشفع بك في رد بصري اللهم شفع النبي فيّ» وقال: «فإن كان لك حاجة فمثل ذلك» فرد الله بصره.

وللناس في معنى هذا قولان:

أحدهما: أن التوسل هو الذي ذكره عمر بن الخطاب لمّا قال: كنا إذا أجدبنا نتوسل بنبينا إليك فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا، وهو في صحيح البخاري وغيره، فقد ذكر عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته في الاستسقاء، ثم توسل بعمه العباس بعد موته، وتوسلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه، فيكون هو وسيلتهم إلى الله تعالى، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في مثل هذا شافعًا وداعيًا لهم.

والقول الثاني: أن التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم يكون في حياته وبعد موته وفي حضرته ومغيبه، ولا يخفاك أنه قد ثبت التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وثبت التوسل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة إجماعًا سكوتيًّا لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في التوسل بالعباس رضي الله عنه، وعندي أنه لا

وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم كما زعمه الشيخ عز الدين بن عبد السلام لأمرين:

الأول: ما عرّفناك به من إجماع الصحابة رضي الله عنهم.

والثاني: أن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة؛ إذ لا يكون الفاضل فاضلاً إلا بأعماله، فإذا قال القائل: (اللهم إني أتوسل إليك بالعالم الفلاني) فهو باعتبار ما قام به من العلم، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة أن كل واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة، فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز أو كان شركًا كما يزعمه المتشددون في هذا الباب ـ كابن عبد السلام ومن قال بقوله من أتباعه ـ لم تحصل الإجابة لهم، ولا سكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم، وبهذا تعلم أن ما يورده المانعون من التوسل بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ ونحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ ونحو قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ ليس بوارد، بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه؛ فإن قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ مصرح بأنهم عبدوهم لذلك، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يعبده، بل علم أن له مزية عند الله -بحمله العلم- فتوسل به لذلك، وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾؛ فإنه نهى عن أن يدعى مع الله غيره، كأن يقول بالله وبفلان، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يدعُ إلا الله، فإنما وقع منه التوسل عليه بعمل صالح عمله بعض عباده كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم، وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الآية؛ فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم ولم يدعوا ربهم الذي يستجيب لهم، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله ولم يدع غيره دونه ولا دعا

غيره معه، وإذا عرفت هذا لم يَخْفَ عليك دفعُ ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع خروجًا زائدًا على ما ذكرناه؛ كاستدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فإن هذه الآية الشريفة ليس فيها إلا أنه تعالى المنفرد بالأمر في يوم الدين، وأنه ليس لغيره من الأمر شيء، والمتوسل بنبي من الأنبياء أو عالم من العلماء هو لا يعتقد أن لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله في أمر يوم الدين، ومن اعتقد هذا لعبد من العباد -سواء كان نبيًّا أو غير نبي- فهو في ضلال مبين، وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فإن هاتين الآيتين مصرحتان بأنه ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أمر الله شيء، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فكيف يملك لغيره؟ وليس فيهما منع التوسل به أو بغيره من الأنبياء أو الأولياء أو العلماء، وقد جعل الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم المقام المحمود مقام الشفاعة العظمى، وأرشد الخلق إلى أن يسألوه ذلك ويطلبوه منه وقال له: سل تعطه واشفع تشفع، وقيل ذلك في كتابه العزيز بأن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه ولا تكون إلا لمن ارتضى، وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ «يا فلان بن فلان لا أملك لك من الله شيئًا، يا فلانة بنت فلان لا أملك لك من الله شيئًا»؛ فإن هذا ليس فيه إلا التصريح بأنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يستطيع نفع من أراد الله ضره ولا ضر من أراد الله تعالى نفعه، وأنه لا يملك لأحد من قرابته ـ فضلاً عن غيرهم ـ شيئاً من الله، وهذا معلوم لكل مسلم، وليس فيه أنه لا يتوسل به إلى الله؛ فإن ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر والنهي، وإنما أراد الطالب أن يقدم بين يدي طلبه ما يكون سبباً للإجابة ممن هو المنفرد بالعطاء والمنع، وهو مالك يوم الدين» انتهى كلام الشوكاني.

وكذلك الحال في التبرك بزيارة مقامات أهل البيت الكرام وغيرهم من الصالحين؛ فإن زيارة آل بيت النبوة من أقرب القربات؛ وأَولى القبور بالزيارة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبور آل البيت النبوي الكريم؛ لأن في زيارتهم ومودتهم برًّا وصلة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل إن زيارة الإنسان لقبورهم آكد استحبابًا وأكثر ثوابًا من زيارته لقبور أقربائه، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «والذي نَفسِي بيَدِهِ لَقَرابةُ رسولِ اللهَّ صلى الله عليه وآله وسلم أَحَبُّ إلَيّ أَن أَصِلَ مِن قَرابَتِي»، فتكفير فاعل ذلك مخالف لإجماع المسلمين، بل قائل ذلك أَولى بالكفر مِمن كفّره.

وتَسَتُّرُ تيارات التكفير بهذا الأقوال الفاسدة واتخاذها ذريعة لاتهام المسلمين بالشرك والكفر مع نسبة كل هذه الأفهام المغلوطة إلى الشيخ ابن تيمية رحمه الله.. هو من التلبيس والإرجاف[1] الذي ينتهجه أدعياء هذا الفكر الخارجي؛ ليتطاولوا

(١) انظر إلى هذا الأدب الجم مع الشيخ ابن تيمية رحمه الله وليت الموافق والمخالف يكون له نصيب من هذا الأدب الذي يستمد من قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] وهكذا حال غالب أهل التربية والسلوك الذين تجردوا عن الخلق بالحق، فتجدهم يحسنون ظنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا بآحاد الناس فكيف بالعلماء.
قال العلامة الفاني في الحضرة المحمدية سيدي الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني في كتابه النفيس شواهد الحق بالاستغاثة بسيد الخلق (٦٢): «اعلم أني أعتقد في ابن تيمية وتلميذيه ابن القيم وابن عبد الهادي أنهم من أئمة الدين وأكابر علماء المسلمين، وقد نفعوا الأمة المحمدية بعلمهم نفعا عظيما وإن أساءوا غاية الإساءة في بدعة الزيارة و الاستغاثة وأضروا بها الإسلام والمسلمين أضرارا عظيمة، وأقسم بالله العظيم أني قبل الاطلاع على كلامهم في هذا الباب في شؤون النبي ﷺ لم أكن أعتقد أن مسلما يجترىء على ذلك، و إني منذ أشهر أتفكر في ذكر عباراتهم فلا أتجاسر على ذكرها ولو للرد عليها خوفا من أن أكون مسببا في زيادة نشرها لشدة فظاعتها؛ فالله يغفر لهم ويرحمهم بحسب نياتهم ولا يمنعنا ذلك من الترحم عليهم والانتفاع بعلمهم، فالجواد قد يكبو والسيف قد ينبو..».
=

به على حرمات المسلمين، منغمسين بذلك في أوحال التكفير والتفسيق والتبديع لجمهور الأمة ومشاهير علمائها وصالحيها بل وسوادها الأعظم، ومتهمين سلف الأمة وخَلَفها بالشرك والكفر إلا من كان على مثل باطلهم ومشربهم الفاسد.

وهذا هو عين مذهب الخوارج الذي حذرتنا النصوص الشرعية من الوقوع فى باطله:

فروى الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما تعليقًا –ووصله ابن جرير الطبري في «تهذيب الآثار» بسند صحيح ـ أنه كان يَراهم شِرارَ خَلقِ اللهَّ، وكان يقول: إنّهم انطَلَقُوا إلى آياتٍ نَزَلَت في الكُفّارِ فجَعَلُوها على المُؤمِنِينَ.

وعن علي ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يَأتِي في آخِرِ الزَّمانِ قَومٌ حُدَثاءُ الأَسنانِ سُفَهاءُ الأَحلام، يَقُولُونَ مِن خَيرِ قَولِ البَرِيّةِ، يَمرُقُونَ مِن الإسلامِ كما يَمرُقُ السَّهمُ مِن الرَّمِيّةِ، لا يُجاوِزُ إيمانُهم حَناجِرَهم، فأينَما لَقِيتُمُوهم فاقتُلُوهم؛ فإنّ قَتلَهم أَجرٌ لِمَن قَتَلَهم يَومَ القِيامةِ»، متفق عليه.

وعن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الخَوارِجُ هم كِلابُ النّارِ»، رواه الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما.

ونحن نحذِّر المسلمين من السير خلف هذه الأفكار التكفيرية الضالّة التي يطعن بها خوارجُ العصر في عقائد المسلمين، ونُهِيب بكل مسلم غيور على دينه أن يَحذَر ويُحَذِّر من تكفير إخوانه المسلمين؛ فتكفير المسلم كقتله، وعلى أهل العلم أن يبينوا لهؤلاء الأغرار فساد معتقداتهم حتى يرجعوا إلى الحق الذي يُرضِي اللهَ ورسولَه صلى الله عليه وآله وسلم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

= وتقدم نقل تشدد ابن تيمية رحمه الله في إطلاق الكفر وقوله: بالعذر بالجهل. أما تستر محمد بن عبد الوهاب ببعض أفكار ابن تيمية؛ فهذا لا ينفعه؛ إذ أنَّ ابن تيمية رحمه الله لم يرفع سيفاً ولم يشق عصا الطاعة ويخرج على إمام المسلمين.

فهرس المحتويات

المقدمة
سبب تأليف الرسالة
تشدد الإمام ابن تيمية رحمه الله في تكفير المعين
كلام الحبيب علوي الحداد في كتابه : مصباح الأنام
الخلط الذي وقع فيه ابن تيمية رحمه الله
هذه الرسالة ممكن أن تكون وسيلة لجمع كلمة المسلمين
تقسيم التوحيد مسألة إصطلاحية
أقوال علماء أصول الدين في إقرار مشركي العرب بوجود الله تعالى ، وإن وجد في بعضهم إنكار الصانع
كلام الشهرستاني في الملل والنحل
كلام ملا علي قاري في شرح الفقه الأكبر
كلام القاري يستفاد منه أنَّ الإمام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله كان يرى أنَّ كفار قريش يقرون بوجود الله تعالى
كلام الإمام البابرتي في شرح العقيدة الطحاوية.....
كلام المحقق الكمال ابن الهمام في المسايرة.....
قول قاضي الجماعة الكومي التونسي في شرح عقيدة ابن الحاجب
قول الشيخ سعيد فودة في تهذيب شرح السنوسية.....
كلام علماء التفسير في تفسير قوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)
كلام ابن جرير الطبري
كلام الفخر الرازي

كلام العارف بالله ابن عجيبة
كلام الألوسي
كلام علماء التفسير في تفسير قول الله تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ..).....
كلام ابن جرير الطبري
كلام الفخر الرازي
كلام الألوسي
قول ابن عجيبة في البحر المديد
كلام المفسرين في تفسير قول الله تعالى (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)
كلام ابن جرير الطبري
كلام الفخر الرازي
كلام ابن عجيبة
نماذج من أقوال كبار علماء الأمة في اعتقاد مشركي العرب بوجود الله تعالى وأنه الخالق الرازق
قول الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة
قول الإمام السرخسي.....
قول حجة الإسلام الغزالي
كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني
كلام الحافظ الذهبي
قول المؤرخ ابن هشام في سيرته.....
قول المحدث المناوي
قول الفقيه ابن نجيم

قول الإمام الكاساني.....
قول الفقيه البجيرمي
قول المؤرخ الحلبي في سيرته
الخاتمة.....
غالب مشركي العرب يقرون بوجود الله تعالى
قول العارف بالله ابن عجيبة في البحر المديد.....
بعض ما صنعه محمد بن عبد الوهاب.....
كلام ابن قاسم في كتابه الدرر السنية في الأجوبة النجدية
جواز التوسل والاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم
صنع الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى
بعض الاستشكالات على القول بتقسيم التوحيد
الاستشكال الأول : القول بالتقسيم يلزم منه اجتماع التوحيد والشرك في آن واحد
الجواب على هذا الاستشكال.....
الاستشكال الثاني :الميت يقال له في قبره : من ربك؟ ولا يقال : من إلهك
الجواب على هذا الاستشكال.....
كلام إمام الحرمين الجويني في الإسلام والإيمان
بيان الأزهر الشريف مع التعليق عليه
انصاف سماحة المفتي الشيخ محمد علي جمعة حينما تكلم عن ابن تيمية رحمه الله تعالى
شهرة التقسيم عن ابن تيمية رحمه الله لا يعني أنه هو من اخترعه.....
تتبع العلماء الذين عاصروا ابن تيمية رحمه الله وردودهم عليه في الفروع والأصول دون أن يردوا عليه أصل التقسيم.....
الموضع الذي زلت فيه قدم ابن تيمية رحمه الله.....

استدراك على بيان الأزهر الشريف
استدراك ثانٍ على بيان الأزهر الشريف
الأدب الجم من سماحة المفتي الشيخ محمد علي جمعة مع الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى
تحذير المفتي للمسلمين من السير خلف خوارج العصر

دار النور المبين للنشر والتوزيع

عمان - الأردن - تلفاكس: 0096264615859

Email: darannor@gmail.com - website: www.darannor.com

www.facebook.com/darannorpage @Darannor